العلم والعلماء بين الإنبات والافتيات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين إلى يوم الدين. وبعد...

يصدر هذا العدد من مجلة دار الإفتاء المصرية في هذه المرحلة الحرجة التي تمر بها أمتنا؛ تغييرًا وإصلاحًا وبناءً، ومع كثرة الدعاوى العريضة في هذه الظروف وظهور كثير من أدعياء العلم تتجلى حاجة الناس إلى الالتفاف حول المنهج الوسطي الذي يمثِّله علماء الأزهر الشريف عبر القرون؛ شريعة وعقيدة وسلوكًا، حيث جعلهم الله سبحانه وتعالى منذ العصور الأولى منارات يُهْتَدَى بها، فكانوا مِن خير ورثة الأنبياء الذين يتلمس الناس عن طريقِهم طريقَهم إلى الله، ويهتدون بهديهم إلى معرفة هُداه، حيث قاموا في الأمة مقام النبي عليه الصلاة والسلام، بما يبلغونه عن الله تعالى ورسوله –صلى الله عليه وآله وسلم– من الأحكام الشرعية والفتاوى التي هي بالنسبة لعامة الناس كنصوص الشريعة بالنسبة للمجتهدين.

وقد ضرب النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– المثل لمدى قابلية الناس للأخذ من ميراث النبوة وتفاوتهم في ذلك، في واحد من أجمل الأمثلة التي توضح صفات المنهج الوسطي في فهم الدين ونشره؛ فروى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي موسى الأشعري –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– قال: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ المَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الكَلَأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ المَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ».

والمتأمل في هذا الحديث الشريف يرى روعة التمثيل النبوي ودقته؛ حيث وصف النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– الأرض الصالحة بأرفع الأوصاف وأنفعها: فهي نقيةٌ في أصلها، وهي قابلة للماء، ولديها القابلية للإنبات، ونتاجها كثير وانتفاع الناس بها متنوع وفير.

وهذا هو الحال في العلماء أصحاب المنهج الوسطي في فهم الإسلام الذين هم ورثة الأنبياء على الحقيقة:

أما نقاء أصلهم: فهم أمام غيث الوحي الإلهي أصحابُ فطرة صافية نقية تسير في طريق العلم محضًا، وترى طلبه في نفسه فرضًا، لا أنها تعمد إلى نصوص الشريعة فتقرؤها قراءات محمَّلةً تلوي فيها أعناق النصوص وتحمِّلها ما لا تحتمله.

وأما قبولهم للغيث: فهم أصحاب المنهج السديد في التلقي والتثبت الذي أحسنوا من خلاله القبول والأخذ عن الله تعالى ورسوله –صلى الله عليه وآله وسلم– من جهة الحُجِّية: في الرجوع إلى مصادر التشريع، وأنه لا كلام لأحد مع كلام الله تعالى وكلام رسوله –صلى الله عليه وآله وسلم–، ومن جهة الثبوت: في علوم النقل والرواية التي نقلوا بها الوحيين الكتاب والسنة نقلا لم تعرفه البشرية لأي كتابٍ أو دين عبر القرون.

وأما قابليتهم للإنبات: فذلك مناط خيريتهم، وهي الصفة المعوَّل عليها في تميزهم وأوليتهم على غيرهم، والمقصود بها في هذا التشبيه التمثيلي: تأهلهم وصلاحيتهم –بما أفنوا أعمارهم وجهودهم في تلقيه ودراسته وتعلمه– للتبليغ عن الله ورسوله –صلى الله عليه وآله وسلم–؛ لينتفع بهم الناس بعد ذلك.

وعملية الإنبات هذه عملية مركبة معقدة، تجتمع عليها أسباب متعددة، وتعتورها عوامل مختلفة، وتعوزها الرعاية والعناية، بدءًا من انتقاء البذرة، واحتياجها إلى الدفن في الأرض، وتعاهد سقيها بالماء، وتعريضها للهواء لتنفس النبات، والشمس لعملية التمثيل الضوئي، وإزالة الأجزاء الضارة أو تلك التي تعيق نمو النبات، في منظومة متكاملة متتابعة شبيهة –في تركُّبها وترتُّبها على بعضها– بالمنظومة التعليمية بأركانها الخمسة: الأستاذ، والمنهج، والكتاب، والتلميذ، والجو العلمي.

وكما أن لكل سبب من أسباب هذه العملية أو مرحلة من مراحلها –انتقاصًا وتكاملًا– أثره السلبي أو الإيجابي في ترعرع النبات وصلاحه ونضجه، فكذلك الحال في طالب العلم فضلا عن غيره:

- فليس له أن يهرف بما لا يعرف، ولا أن يتكلم قبل أن يتعلم، وإلا صار كمن يتَرَبَّبُ قبل أن يتحصرم، أي: يصير زبيبًا قبل أن يصير حصْرمًا.
- وعليه أن يدفن نفسه في أرض الخمول، فيتواضع ويعرف محل نفسه من العلم، فما نبت مما لم يُدفَن لا يتم نِتاجُه، كما يقول الإمام العارف بالله سيدي ابن عطاء الله السكندري –رضي الله عنه– في «الحِكَم».
- كما أن الغياب عن الجو العلمي يؤثر سلبًا على استيعاب العلم الذي ينضج بتلاقح الأفكار وتقليب الأنظار أخذًا وردًّا، تمامًا كما ينضج النبات بتلاقح زهوره.

فإذا تكاملت للنبات هذه المنظومة الطبعية أينع وبدا صلاحه، وصار جميلًا في ظاهره ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩٩] وصالحًا للأكل والانتفاع به في باطنه ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١]، وكذلك طالب العلم إذا تكاملت له المنظومة العلمية علمًا وأدبًا وسلوكًا صلح ظاهره وباطنه ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨].

يقول الشيخ الإمام العارف سيدي زرُّوق في «قواعد التصوف» في القاعدة الثامنة والعشرين: «لكل شيء وجهٌ؛ فطالب العلم في بدايته شرطه: الاستماع والقبول، ثم التصور والتفهم، ثم التعليل والاستدلال، ثم العمل والنشر.

ومتى قدم رتبة عن محلها حُرِم الوصول لحقيقة العلم من وجهها، فعالم بغير تحصيل ضُحكة، ومحصل دون تصوير لا عبرة به، وصورة لا يحصنها الفهم لا يفيدها غيره، وعلم عري عن الحجة لا ينشرح به الصدر، وما لم ينتج فهو عقيم، والمذاكرة حياته، لكن بشرط الإنصاف والتواضع».

ويقول في القاعدة الرابعة والثلاثين: «المتكلم في فن من فنون العلم، إن لم يلحق فرعه بأصله، ويحقق أصله من فرعه، ويصل معقوله بمنقوله، وينسب منقوله لمعادنه، ويعرض ما فهم منه على ما علم من استنباط أهله، فسكوته عنه أولى من كلامه فيه؛ إذ خطؤه أقرب من إصابته، وضلاله أسرع من هدايته، إلا أن يقتصر على مجرد النقل المحرر من الإيهام والإبهام؛ فرب حامل فقه غير فقيه، فيسلم له نقله لا قوله».

وكما تشير عملية الإنبات في هذا المثال النبوي إلى منهج التعلم والتلقي فإنها تشير أيضًا لمنهج الاستنباط والفهم والتبليغ عن الله تعالى ورسوله -صلى الله عليه وآله وسلم-؛ فالأرض الطيبة تأخذ الماء فتخرج الثمر من خلال عملية الإنبات المركبة، وكذلك العالم والفقيه؛ يأخذ النص المجرد ليستثمر منه الحكم الشرعي، بعد أن يفهم سياقه وسباقه ولحاقه، منقحًا مناطه، ويجمع إليه بقية النصوص التي تتصل بموضوعه، ظنيِّها وقطعيِّها، مستحضرًا قواعد الشريعة الكلية ومصالح الخلق المرعية، مدركًا لواقعه إدراكًا بينًا؛ لتخرج الثمرة في النهاية وهي الحكم الشرعي، فإن الأحكام ثمرات كما يقول حجة الإسلام الغزالي في ((المستصفى، ١/ ٧))، قال: «وكل ثمرة فلها صفة وحقيقة في نفسها، ولها مثمر ومستثمر، وطريق في الاستثمار»، وهذا هو النتاج الذي ينفع الناس على اختلاف حاجاتهم وتنوع مطالبهم.

وبقدر ما يُنتَقَص مِن هذه المنظومة التعليمية أو الاستنباطية بقدر ما يكون الافتيات على العلم والعلماء، فتطفو النباتات الضارة وتظهر المشارب المتطرفة، ويتسامع الناس بالآراء الغريبة هنا وهناك، ويكون الافتيات على العلم وأهله.

غير أن الحق أبلج، والباطل لجلج، وقد قضت سنة الله تعالى في الكون ألا يبقى إلا الذي ينفع الناس، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

نسأل الله تعالى أن يعيد إلى المسلمين عزهم ومجدهم العلمي، وأن يجمع الأمة على علمائها وورثة نبيها -صلى الله عليه وآله وسلم-

الذين أهلهم لفهم دينه وتبليغ شريعته، وألا يجعل لأصحاب المشارب المتشددة أو الأفكار المنحرفة كلمة في المسلمين، وأن تذهب أفكارهم أيديَ سبأ، وتتشرذم مشاربهم شذر مذر، وأن يثبت حب نبيه –صلى الله عليه وآله وسلم– في قلوب المسلمين، ويجزيه عنا أفضل الجزاء، ويقر عينه –صلى الله عليه وآله وسلم– بصلاح أحوال أمته ورد مقدساتها، وأن يؤتيه من الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة فوق أمنيته.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الدكتور/ محمد وسام عباس خضر

أمين الفتوى ومدير إدارة الفتاوى المكتوبة
بدار الإفتاء المصرية